

المحاضرة الرابعة: سياقات النص القرآني السببي

❀ أولا/ أسباب النزول ❀

نزل القرآن الكريم لهداية البشرية جمعاء، فجاء مبينا شرائع الله وشعائر دينه، وسائر الأحداث والوقائع والمناسبات التي عاشها المجتمع، فكان ينزل معالجا بعض الأحداث التي تتطلب معرفة حكم الله فيها، مراعيًا ظروف العباد متدرجا في التشريع لهم، فنزلت بذلك النصوص القرآنية في العهدين المكي والمدني على مر بضع وعشرين سنة... وقد كان لنزول بعض النصوص تأسيس للأحكام من غير ورود لأسباب مسبقة لها، كما نزلت بعض النصوص لتعالج ظروفًا وأسبابًا معينة، وعليه فسنتناول في هذه المحاضرة موضوع أسباب النزول.

❖ أ- تعريف السبب:

لغة: الحبل. ثم استعمل لكل شيء يتوصل به إلى غيره.

شرعاً: ما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه. مثاله: زوال الشمس علامة لوجوب الصلاة، وطلوع الهلال علامة على وجوب صوم رمضان في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾¹.

❖ ب- أسباب النزول:

1- قسم نزل بدون سبب ، وهو أكثر القرآن.

2- قسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب. ومن هذه الأسباب:

أولاً- حدوث واقعة معينة فينزل القرآن الكريم بشأنها: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾². خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه فقال "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟" الحديث ، فقال أبو لهب تباً لك، إنما جمعنا لهذا، ثم قام، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾³.

ثانياً- أن يُسال الرسول ﷺ عن شيء، فينزل القرآن ببيان الحكم مثال ذلك: عن عبد الله قال: إني مع النبي ﷺ في حوث بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما

¹ سورة: البقرة ، الآية: 185.

² سورة: الشعراء ، الآية: 214.

³ سورة: المسد ، الآية: 1.

تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام، فأمسك وجهه بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁴.

❖ ج- الحكمة والفوائد من أسباب النزول:

-الحكمة: معرفة وجه ما ينطوي عليه تشريع الحكم على التعيين لما فيه نفع المؤمنين وغير المؤمنين، فالمؤمن يزداد إيماناً على إيمانه لما شاهده وعرف سبب نزوله، والكافر إن كان منصفاً يبهره صدق هذه الرسالة الإلهية فيكون سبباً لإسلامه، لأن ما نزل بسبب من الأسباب إنما يدل على عظمة المنزل وصدق المنزل عليه.

-الفوائد:

أولاً- الاستعانة على فهم الآية وتفسيرها وإزالة الإشكال عنها، لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمسبب.

قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

قال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

وقد أشكل على مروان بن الحكم قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا...﴾⁵ وقال: لمن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذب أجمعون، حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأرؤهم أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه.

ثانياً- أن لفظ الآية يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عُرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته.

ثالثاً- دفع توهم الحصر، قال الإمام الشافعي ما معناه في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾⁶ إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة - أي تصرفهم بقصد المخالفة - جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتهم، ولا حرام إلا ما أحللتهم.

رابعاً- معرفة اسم النازل فيه الآية، وتعيين المبهم فيه.

❖ د- كيفية معرفة أسباب النزول:

⁴ سورة: الإسراء ، الآية: 85.

⁵ سورة: آل عمران ، الآية: 188.

⁶ سورة: الأنعام ، الآية: 145.

لما كان سبب النزول أمراً واقعاً نزلت بشأنه الآية، كان من البدهي ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد، لهذا قال الإمام الواحدي: ولا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها.

ومن هنا نفهم تشدد السلف في البحث عن أسباب النزول، حتى قال الإمام محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن.

وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب النزول لأن أسباب النزول غير خاضعة للاجتهاد فيكون قول الصحابي حكمه الرفع، أما ما يرويه التابعون من أسباب النزول، فهو مرفوع أيضاً، لكنه مرسل، لعدم ذكر الصحابي.

❖ هـ - صيغة السبب:

أولاً: تكون نصاً صريحاً في السببية إذا صرح الراوي بالسبب بأن يقول: سبب نزول هذه الآية كذا، أو يأتي الراوي بفاء التعقيب بعد ذكر الحادثة، بأن يقول: سئل رسول الله ﷺ عن كذا، فنزلت الآية.

ثانياً: تكون محتملة للسببية إذا قال الراوي: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا، مثال ذلك ما حدث للزبير والأنصاري ونزاعهما في سقي الماء، وتشاكيا إلى رسول الله ﷺ ونفذ فيهما حكم الله، فكأن الأنصاري لم يعجبه هذه الحكم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾⁷ فقال الزبير ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك.

❖ و - اختلاف روايات أسباب النزول:

لما كان سبيل الوصول إلى أسباب النزول هو الرواية والنقل، كان لا بد أن يعرض لها ما يعرض للرواية من صحة وضعف، واتصال وانقطاع، غير أنا هنا على ظاهره هامة يحتاج الدارس إليها وهي اختلاف روايات أسباب النزول وتعددتها، وذلك لأسباب يمكن تلخيص مهماتها فيما يلي:

1- ضعف الرواة:

وضعف الراوي يسبب له الغلط في الرواية، فإذا خالفت روايته المقبولين، كانت روايته مردودة.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾⁸، فقد ثبت أنها في صلاة التطوع للراكب المسافر على الدابة. أخرج مسلم عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث

⁷ سورة: النساء ، الآية: 65.

⁸ سورة: البقرة ، الآية: 115.

كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وأخرج الترمذي وضعفه: أنها في صلاة من خفيت عليه القبلة فاجتهد فأخطأ القبلة، فإن صلاته صحيحة. فالمعول عليه هنا في سبب النزول الأول لصحته.

2- تعدد الأسباب والمنزل واحد:

وذلك بأن تقع عدة وقائع في أزمنة متقاربة، فتنزل الآية لأجلها كلها، وذلك واقع في مواضيع متعددة من القرآن، والعمدة في ذلك على صحة الروايات، فإذا صحت الروايات بعدة أسباب ولم يكن ثمة ما يدل على تباعدها كان ذلك دليلاً على أن الكل سبب لنزول الآية والآيات.

مثال ذلك: آيات اللعان: فقد أخرج البخاري: أنها نزلت في هلال بن أمية لما قذف امرأته عند النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ..﴾⁹، وفي الصحيحين: أنها نزلت في عويمر العجلاني وسؤاله النبي ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً... فقال ﷺ: "إنه قد أنزل فيك وفي صاحبك القرآن".

وظاهر الحديثين الاختلاف، وكلاهما صحيح. فأجاب الإمام النووي: بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأهما معاً.

3- أن يتعدد نزول النص لتعدد الأسباب:

قال الإمام الزركشي: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه... ولذلك أمثلة، منها:

ما ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾¹⁰ أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه الآية في سورة "سبحان" - أي الإسراء وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة، وأن اليهود أمرهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب، كما سبق بيانه.

ولا يقال: كيف يتعدد النزول بالآية الواحدة، وهو تحصيل حاصل؟

فالجواب: أن لذلك فائدة جلية، والحكمة من هذا - كما قال الزركشي - أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه.

❖ ز- تعدد النزول مع وحدة السبب:

⁹ سورة: النور، الآية: 6.

¹⁰ سورة: الإسراء، الآية: 85.

- 1- قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ومن ذلك ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾¹¹.
- 2- عن أم سلمة قالت: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال، فأنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾¹².
- 3- عن أم سلمة أنها قالت: تغزوا الرجال ولا تغزوا النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَتَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾¹³.

❖ ح- تقدم نزول الآية على الحكم:

- 1- المثل الأول: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾¹⁴ استدل بها على زكاة الفطر، والآية مكية، وزكاة الفطر في رمضان، ولم يكن في مكة عيد ولا زكاة.
- 2- المثل الثاني: قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾¹⁵ السورة مكية، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال صلى الله عليه وسلم: "أحلت لي ساعة من نهار".
- 3- المثل الثالث: قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾¹⁶، قال عمر ابن الخطاب: كنت لا أدري أي الجمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

أمثلة عن أسباب النزول:

- 1- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾¹⁷: نزلت في تحويل القبلة. لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، فقال السفهاء من الناس-وهم اليهود- ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.
- 2- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾¹⁸: عن جابر قال: عادي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة بمشيان، فوجدني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رش عليّ منه فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ

¹¹ سورة: آل عمران ، الآية: 195.

¹² سورة: الأحزاب ، الآية: 35.

¹³ سورة: النساء ، الآية: 32.

¹⁴ سورة: الأعلى ، الآية: 14.

¹⁵ سورة: البلد ، الآيتان: 1-2.

¹⁶ سورة: القمر ، الآية: 17.

¹⁷ سورة: البقرة ، الآية: 142: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾.

¹⁸ سورة: النساء ، الآية: 11.

فِي أَوْلَادِكُمْ».

- 3- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾¹⁹ عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون النبي ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقتة: أين ناقتي؟ فأُنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.
- 4 - قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾²⁰: عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عاجلت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن آتيها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت، قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه، فتلا عليه هذه الآية، فقال الرجل: يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال: " لا، بل للناس كافة ".
- 5- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾²¹: عن عباس قال: نزلت ورسول الله ﷺ محتف بمكة، وكانوا إذا سمعوا القرآن سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقرأتكم فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا يسمعون ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.
- 6- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾²²: عن جابر قال: كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها: مسيكة، فكان يكرهها على البغاء، فأُنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾²³.
- 7- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾²⁴: عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه قال: نزلت هذه الآية فيّ، قال: حلفت أم سعد لا تكمله أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، ومكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها الجهد، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾.
- 8- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾²⁵: عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا مُجَدِّاً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملناه كفرًا، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا...﴾.

المراجع:

*/ علوم القرآن الكريم: نور الدين محمد عتر الحلبي.

*/ الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي.

*/ دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي.

¹⁹ سورة: المائدة ، الآية: 101.

²⁰ سورة: هود ، الآية: 114.

²¹ سورة: الإسراء ، الآية: 110: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

²² سورة: النور ، الآية: 33.

²³ سورة: النور ، الآية: 33.

²⁴ سورة: العنكبوت ، الآية: 8.

²⁵ سورة: الزمر ، الآية: 53.